

مقاومة أهالي المدينة للاحتلال الفرنسي ما بين (1830-1840).

د/ محمد بوطيبي

قسم التاريخ/ جامعة يحي فارس بالمدينة

الإلكتروني:

البريد

bt.med@hotmail.com

الملخص:

أخذت المدينة مكانتها الإستراتيجية منذ القدم، وبرزت هذه المكانة خلال الفترة العثمانية حينما كان بايلك التيطري إحدى البايك الثلاثة التابعة للدولة العثمانية في الجزائر. وقد أدركت قوات الاحتلال الفرنسي عشية احتلال الجزائر 1830 أهمية بايلك التيطري الإستراتيجية والاقتصادية، حيث وجهت أربع حملات كاملة لاحتلال المدينة خلال الفترة الممتدة ما بين 1830-1840. فما هو موقف أهالي المنطقة من الاحتلال الفرنسي الذي لم يخضع المنطقة نهائيا لسلطته إلا في عام 1840؟

Résumée :

Médéa a pris sa position stratégique depuis langue temps, et a émergé pendant la période ottomane où Bailek Titteri était l'un des trois Bialiks de l'Empire ottoman en Algérie.

A la veille de l'occupation de l'Algérie en 1830, les forces d'occupation françaises se rendirent compte de l'importance du Bailek stratégique et économique.

Quatre campagnes furent lancées par le gouvernement général français pour occuper Médée entre 1830 et 1840.

En fin quelle est la position du peuple de la région de l'occupation française, qui n'était soumise à la région de son autorité qu'en 1840?

مقدمة :

تشير بعض الكتابات التاريخية بأن المدينة تأسست من طرف بلكين بن زيري من أسرة صنهاجية، على أنفاذ التنظيمات الرومانية التي استولت على موريتانيا القيصرية، واتخذت اسمها من يوليوس قيصر. وكانت تمثل الخطوط الدفاعية الأمامية كغيرها من خميس مليانة للدفاع عن الجيوش الرومانية، رغم وجود حنود الفرقة 22 *primigenia* التي واجهت مقاومة طويلة في من سكان جبال التيطري (*monts capientes*).¹

وخلال فترة الحكم العثماني للجزائر، أصبحت المدينة أحد الأقاليم الثلاثة (البباليك) التابعة لدار السلطان، حيث كانت تتكون من مجموعة الأكواخ، تحتوي على ضريح تأسس ما بين 701-704م على يد أبو يحيى بأمر من السلطان الحاكم.² غير تنظيم المدينة وتعميرها ظهر خلال الفترة الاستعمارية في الجزائر 1830-1956. وقد حاولنا في هذه الدراسة توضيح موقف أهالي المدينة من الاحتلال الفرنسي للمدينة خلال الفترة الواقعة ما بين 1830-1840.

1. الحملة الفرنسية الأولى على المدينة وموقف الأهالي عام 1830:

عشية نزول الحملة الفرنسية 1830 على شواطئ سيدي فرج، واجهت قوات الداى حسين التي كان على رأسها سهره إبراهيم آغا جيوش الاحتلال الفرنسي، وقد ساندته في تلك المقاومة قوات قادمة من جبال المدينة بقيادة مصطفى بومرزاق للدفاع عن الجزائر. هذا الأخير بعد فشل الدفاع عن العاصمة عاد إلى بابليك التيطري بالمدينة، وأصبح بابيا منافسا للحاكم العام الفرنسي في الجزائر، من خلال محاولة ايجاد وزن له على حساب بابليك قسنطينة في تلك الفترة وهو أحمد باي.³

لقد شغلت المدينة اهتمامات القادة الفرنسيين منذ الوهلة الأولى لاحتلال الجزائر 1830، نظرا لموقعها الاستراتيجي الذي يفصل بين الساحل الجزائري والجنوب الصحراوي. لذلك أراد الحاكم كوزيل خلفية الجنرال دي بورمون أن يحقق نصرا سريعا للفرنسيين في الأراضي الإفريقية، فشكل جيشا قوامه 8000 جندي،

أسندت قيادته للجنرال بوري *bory* وقائدي الفرقتين هشار هيلر *hurel* ومونك ديزر *mink d'uzer*، حيث تمكن القائد كلوزيل توقيع اتفاقية سلام ومهادنة مع سكان البلدية مع العميل يوسف وأحد شيوخ المجلس البلدي السابقين، كي يتم التفرغ لحملته على المدينة.⁴

فبعد إخضاع مدينة البلدية من طرف الحملة الفرنسية، ووضع حامية تتألف من فيلقين بتاريخ 20 نوفمبر 1830، كانت الوجهة المقبلة للاحتلال هي المدينة لتأديب الباي مصطفى بومزراق، عبر مضيق موزاية والثنية، حيث وجدت الجيوش الفرنسية الغازية للمدية مسار الحملة خاوية على عروشها، كي تشارك في معركة الثنية، وأثناء تلك الحملة قام القائد كلوزيل بإلقاء خطبة حماسية على جنوده يذكرهم بأسلافهم الرومان الذين احتلوا المدينة منذ قرون سابقة، بهدف اختراق جبال الأطلسي، وغرس العلم الفرنسي في أعالي المدينة، باعتبار أن الشعوب الأوروبية كلها تنتظر بشغف أخبار هذا النصر في عمق القارة الإفريقية.⁵

وتشير المصادر الفرنسية أنه خلال تلك الحملة قام الجنرال كلوزيل باستقبال أحد شيوخ الزوايا وبخمس رؤساء من القبائل لتقديم الولاء والطاعة للقائد الفرنسي كلوزيل، الذي استغل هذه المقابلة في معرفة التفاصيل الدقيقة للطريق المؤدي للمدية، والتي زودها به الشيخ محمد بن فقير، إذ خيره هذا الأخير بين طريقتين اثنتين: الأولى قصير ومباشر بمحاذاة الجبال، والثاني طويل ومتعرج يوصل إلى الهدف في الأخير، رغم ذلك فإن الجنرال الفرنسي اختار المسار الأول باتجاه المدينة.⁶

وبالفعل فقد استطاعت القوات الفرنسية من اختراق مضيق موزاية، رغم المقاومة الشرسة التي واجهتها من طرف القبائل العربية في مرتفات الثنية. وللمرة الثانية بعد عشرين قرنا من اختراق جبال الأطلسي من طرف الرومان، تم اختراقها من طرف الحملة الفرنسية الأولى، التي كان على رأسها هشار ويكروس ومكماهون. في ظل انتشار خبر هزيمة مقاومة الباي بومزراق بدأت

مظاهر الخيانة والاستسلام تدب في وسط الشيوخ والقبائل المنطقة بإعلان
الولاء والاستسلام للفرنسيين، على حد ما ذكره قادة الاحتلال الفرنسيين بقوله :
"... وصل زعماء القبائل الذين يطلبون الاعتراف بسمو اسم فرنسا للجنرال
الفرنسي، الله معك وسنأخذ معهم الطريق التي سلكها بومزراق بمعية ابنه
للسير في المقاوم شخصيا".⁷

وقبيل وصول الحملة العسكرية إلى المدينة تركت القوات الفرنسية حامية على
رأسها القائد مونك ديزر في منطقة الثنية، لمنع القبائل العربية من الوصول
للضفة الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط، لكن رغم ذلك فقد تعرضت قوات مونك ديزر
المرابطة في المنطقة مع الفرقة 21 المرابطة في الجهة الشمالية منها لهجمات
من قبائل وعروش المدينة، لكنها لم تفلح في مهامها. وقد استطاع خمسة جنود
فرنسيين التسلل واختراق الجهة الجنوبية من المنطقة، مردفين بالفرسان الذين
توقفوا قرب أحد الأودية الصغيرة وبذلك فتحوا ثغرة للجنود الفرنسيين لمتابعة
مسيرتهم باتجاه مدينة المدينة، في الوقت الذي تراجع فيه المحاربون العرب إلى
الوراء قرب مدينة المدينة لحماية المضيق الرابط بين متيجة والمدينة، فيما
واصلت القوات الفرنسية سيرها للدخول للمدينة، حيث بعث أعيان المدينة رسالة
استسلام عن أحد الأهالي المعوزين يطلبون فيها الاستسلام والولاء للفرنسيين.⁹
حينما علموا بانهزام القائد بومزراق وفشله في صد الحملة الفرنسية على المدينة.
لقد تمت الحملة الفرنسية الأولى ضد المدينة خلال شهر نوفمبر 1830،
حيث بدأ الجنرال كلوزيل * Clauzel¹⁰، حيث واجه مقاومة من قبائل المدينة
ما بين 17-24 نوفمبر 1830¹¹، رغم ذلك استطاعت الجيوش الفرنسية
دخول المدينة في 23 نوفمبر 1830، أي بعد ستة أيام من انطلاق الحملة من
العاصمة¹²، لقد استطاعت القوات الفرنسية القضاء على مقاومة بومزراق
وسجنه رفقة أفراد أسرته. ومن أهم المعارك التي خاضتها الجيوش الفرنسية ضد
قبائل المنطقة معركة سهل هواره ما بين 28-29 نوفمبر 1830¹³.

أثناء إقامة الحاكم كلوزيل في المدينة قام بتتصيب مصطفى بن الحاج عمر* حاكما لخدمة السلطة الفرنسية على مدينة المدينة¹⁴، الكائن مقره في الحي العمومي بالمدينة 23 نوفمبر 1830، بناء على المرسوم 16 نوفمبر 1830.

وقد حدد المرسوم في بنوده المسؤولية المنوط بها للباي الجديد، بأنه يتمتع بالشرف والسلطة مثل البايات السابقين في العهد العثماني، كما أنه حظي باهتمام الحاكم العام من طرف الحكومة العامة.¹⁵

لقد حددت المادة الرابعة من أمرية 11 فيفري 1831 بأن باي التيطري ورؤساء البلديات والولايات والقياد والموظفون الآخرون منحا سنوية نظير الخدمة التي يقدمونها للسلطة الفرنسية.¹⁶ إذ يتوجب على الباي الجديد عدم إحداث أي تعديلات بدون أوامر جديدة على المستوى إدارة المدينة دون إستشارة سلطة الاحتلال. إذ يقوم الباي باستخلاف المناصب الشاغرة في قطاع الإدارة والعدالة التي تركها الأتراك بعد سقوط حكومة الداى في 5 جويلية 1830، التي تكون مبنية على موافقة الحاكم العام. كما أن الديون والمستحقات والأموال التي كانت تقدمها القبائل للباي للحكومة العامة يتم صبتها في خزينة العمالة خلال أوقات معلومة. ويستوجب على الباي أثناء ممارسة مهامه الإدارية الاتصال بوكيل المملكة الجزائرية، رئيس اللجنة الحكومية، لتلقى التعليمات وتطبيقها في قالبها الأصلي.¹⁷

وفي مقابل الخدمة الباي يقوم القائد الأعلى للقوات الفرنسية بالولاية باحترام سلطة الباي ويقدم له الحماية الضرورية، وتطبيق الإجراءات التي يفرضها الباي لخدمة الأمن في المنطقة، والتي لا تتعارض مع القوانين والعدالة الفرنسية كما يجب على الباي الاستجابة لمطالب الحاكم العام الفرنسي في تقديم الخدمة العسكرية للقوات البرية، باعتبار أن تواجد هذه القوات هو تحقيق للأمن في المنطقة.¹⁸

وفي عهد الجنرال بارتيزان منحت باي التيطري صلاحيات تجارية، تسمح له بحرية تصدير القمح من المدينة باتجاه أوروبا عبر ميناء وهران، وذلك بموجب التعليمات الصادرة بتاريخ 4 سبتمبر 1831 ، والتي تسمح له بتصدير 15 ألف مكيال من القمح الجزائري أوروبا تحت تنفيذ ممثل الحكومة الايالة.¹⁹ والأكد أن ذلك القمح كان ينتج في هضاب وسهول الولاية، مثل سهول البرواقية، عريب، وبني سليمان وغيرها، والذي ذكرته الكتابات الأوربية خلال القرن التاسع عشر. لقد ظل الباي الجديد ينفذ مهامه الإدارية داخل مقره، بحيث لم يستطع الخروج من دائرته المغلقة، كي يؤدب المقاومين في جهات المدينة، وكان همه الأكبر هو مطالبة السلطات الفرنسية في العاصمة بالمزيد من المساعدات والحماية.²⁰ دلالة على عدم توفر الأمن في منطقة المدينة وضواحيها.

وكان يشرف على حراسة الباي مصطفى بن الحاج عمر مجموعة من الشواش²¹، بمساعدة الفرقة الدفاعية رقم 20 المتكونة من 12000 عسكري فرنسي.²² والفرقة 20 ومجموعة من الزواف لحماية المدينة.²³ في الوقت الذي تم تعيين الكولونيل ماريو قائدا عسكريا للإشراف على الباي الجديد ومضيق موزاية.²⁴ لمراقبة الوضع الأمني في المنطقة.

لقد كان سكان المدينة خلال هذه الفترة يقدرون بحوالي 10000 نسمة، حيث لم يكتف الجنرال كلوزيل بترك فرقتين عسكريتين، ومفرزة من الزواف، بل طلب من القائد ماريو تشكيل أربع فرق أخرى من الأهالي للدفاع عن المدينة.²⁵ تلك المدينة التي كانت لها أهمية كبيرة عند الفرنسيين، باعتبارها تشكل منفذا أساسيا نحو الجنوب الجزائري، كما أنها تمثل حلقة وصل بين بابلك الشرق والغرب.

لقد تكبدت الجيوش الفرنسية خسائر بشرية معتبرة من أجل احتلال المدينة، قدرت خلال الحملة الأولى ب 162 قتيلًا و 300 جريحًا، وفي الحملة الثانية ب 63 قتيلًا و 192 جريحًا. تلك الحملة التي هلك لها المحاربون الفرنسيون، حيث كتب أحد الضباط الفرنسيين المشاركين في الحملة ما يلي: " ستكون

فرنسا سعيدة، وأظن أن حملة السبعة أيام... ستحقق نفس النتائج في قسنطينة وإفريقيا...²⁶ وبالفعل فقد حققت الحملة الفرنسية أهدافها الولية باحتلال المدينة. لقد تباينت مواقف سكان المدينة من احتلال بايلك التيطري، بانقسامهم إلى شقين متباينين. فالأول كان موقفه سلبيا بين الاستقلال أو الخضوع للإدارة الاستعمارية وهم يمثلون البربر واليهود، همهم الأكبر هو الخضوع والحفاظ على مصالحهم وثرواتهم فقط. أما الموقف الثاني فقد شكل نواة المقاومة والمعارضة للاحتلال الفرنسي في المنطقة، في الوقت الذي تحفظ فيه الأتراك متعالين عن شيوخ الدين المحليين، رغم ذلك فالمقاومة ظلت مستمرة ضد الباي المنصب من طرف الجنرال كلوزيل.²⁷ أما الأتراك كانوا مصممين على معارضة الباي الجديد منذ الوهلة.²⁸ باعتبار أن هذه المسؤولية كانت حkra على الأتراك دون غيرهم خلال فترة الحكم العثماني.

بعد تنفيذ قائد الحملة أهدافه الاستراتيجية في المدينة، عادت الحملة أدرجها إلى العاصمة خلال أربعة أيام أخرى، حينها اعترضتها مقاومات شعبية متفرقة لم تؤثر على سير القافلة.²⁹ التي وصلت إلى الجزائر العاصمة بتاريخ 26 نوفمبر 1830،³⁰ بعد استراحة ظرفية في مدينة المدينة، مرفقة بالأسير القائد بومزراق وأسرته وجنود الانكشارية التي كانت تسيير في وسط جيوش الجملّة الفرنسية.³¹

2. حملة القائد مانديري على المدينة:

من المعروف أن الحامية الفرنسية في المدينة كانت تتشكل من الفرقة رقم 20، التي كانت متمركزة في وسط المدينة، بينما فرقتي 28 والزواف كانتا متمركزتين خارج مدينة المدينة لمراقبة تحركات المقاومين القادمين من دواوير وعروش المناطق المجاورة. وبالفعل فبعد يوم من مغادرة القائد كلوزيل لمدينة المدينة قامت قوات تتألف من 3000 محارب من القبائل المجاورة بمهاجمة مزرعة الباي، حيث كان يوجد مقر قائد الفرقة الفرنسية ديلوني *de launy*. وقد شجعت هذه العملية الثائرين في أرياف المدينة القيام بنفس العملية في اليومين

المواليين. وازدادت المقاومة أكثر حين ربط المقاومون اتصالات مع أهالي مدينة المدية في 29 نوفمبر 1830، وفرضوا حصارا كبيرا على الفرنسيين، والذين من حسن حظهم أنقذتهم الأمطار الغزيرة التي تساقطت فترة طويلة على المنطقة، لدرجة عجز القائد ماريو عن التدخل لمساعدة القائد ديلاوني.³²

إن وضعية الحامية الفرنسي في المدية أصبحت جد حرجية بسبب شدة المقاومة الأهلية، باعتراف قائد الحامية العسكرية نفسه في المدية من خلال الرسالة التي وجهها للجنرال كلوزيل يطلب منه الأسلحة والمساندة، حسب ما جاء في الرسالة التي بعثها للقائد كلوزيل في 27 نوفمبر 1830: "أرسل إلي الأسلحة إنني أخاف أن تنفذ إن كرر العدو هجومه". كما أرسل إليه برقية ثانية في اليوم الموالي جاء فيها: " إن وضعيتي حرجية بسبب قلة الذخيرة التي تركتني لحد اليوم إذا عاد العدو في الظهيرة فسأقدم على استعمال الخناجر". وظل يلح عليه بإرسال مدفعين وفرقة لإعادة تعويض الخسائر البشرية التي لحقت به من جراء هجمات القبائل المجاورة، التي تكبد فيها الفرنسيون خلال يومين أكثر من ثلاثمائة 300 قتيل.³³

فالقبايل المجاورة للمدية لم تستسلم في البداية للاحتلال الفرنسي، بل أعلنت المقاومة التي هبت من قبائل هواره، وامري ، حسان بن علي، بني يعقوب، ووزرة وغيرها من القبائل الأخرى.

لقد عززت السلطة الفرنسية تواجدها في المدية، بإرسال الجنرال بوايه إلى المدية، وتكليفه بنقل المئونة في 2 ديسمبر 1930 من مقر الحاكم العام على رأس فرقتين عسكريين وقافلة ضخمة من المحملة بالمئونة. لتقديم الدعم والمساعدة للقائد ماريو، الذي كان يعاني من هجمات العرب المتكررة، القادمة من عروش ودواوير المنطقة، حيث تعرض المحمية خلال شهر نوفمبر ما بين خمس أو ست حملات من جهات الريغور، أسام، الهواورة ووزرة، بني حسان، بن غلاب، استطاعت الحامية الفرنسية صدها باستمرار.³⁴

وبالفعل استطاع بوابيه انجاز المهمة بوصوله إلى مدينة المدية في الرابع ديسمبر 1830، حيث ترك فرقتين عسكريتين لحماية المدينة من هجمات القبائل الثائرة، بعدها عاد أدرجه للعاصمة، في هذه الفترة تم تكليف الجنرال دونليو *danlion* بتسيير شؤون المدية.³⁵

لقد تميزت فترة حكم دانليو بإحكام السيطرة على المدية، وتحولت الحامية العسكرية الفرنسية من الدفاع إلى الهجوم والانتقام من الأهالي. فبفعل إقدام بعض العناصر العربية المناوئة لحكم الباي بن عمر على قتل الشيخ بن عمر بطريقة بشعة، قام القائد الجديد بتوجيه حملة لتأديب القبيلة التي أقدمت على تلك الفعلة في 22 ديسمبر 1830، غير أن سكان هذه القبيلة فروا، مما جعل القائد دونليو ينتقم من القبائل المجاورة بحرق أكواخهم وسلب ثروتهم الحيوانية وحرق حقولهم الزراعية. ونتيجة الإقدام على العملية الانتقامية الوحشية اشتعلت أرياف وعروش المدية ضد الحامية الفرنسية من جديد.³⁶

فإذا كانت الأوضاع الأمنية هدأت في متيجة، وأصبح الحاكم العام يتجول في ربوعها بدون إزعاج من الأهالي كما هو حال القائد برتيزان الذي قام بجولة في البلدة والقلعة في شهر مارس. فإن الأمن لم يستتب في المنطقة الفاصلة بين المدية والبلدة، حيث عرفت هذه المناطق الجبلية انتفاضات عديدة من قبائل بني صالح وبني ميصرا، فصاروا يقومون بغارات على المصالح الفرنسية في سهل متيجة، كما هو الحال في مهاجمة سوقي بني موسى وبوفاريك، كما أصبحوا يقومون بغارات على قبائل المتيجة، التي كانت تتعامل مع الفرنسيين، ومنهم قبيلة الخراشنة التي كان على رأسها القايد محمد بن العمري.³⁷

لقد أثارت قبائل بني مصرا وبني صالح غضب الجنرال بارتيزان مما جعله يهيئ حملة عسكرية قوامها 4000 مقاتل ضدهم في السابع ماي، لكن الظروف الطبيعية حالت دون ذلك، وفشلت حملة بارتيزان في تأديب هذه القبائل، التي فرت نحو أعالي الجبال الحصينة.³⁸

ولما كانت غارات القبائل تظهر باستمرار ضد الحاميات الفرنسية في المدينة، فقد أرسلت القيادة الفرنسية حملة عسكرية قوامها خمسة فيالق بقيادة ضابط الدرك المحلي الآغا مانديري *mendiri* في الفاتح جويلية 1831، حيث قام مانديري بتخريب الأشجار ومزارع القمح في تلك الجهة، متبوعا بعشرة قبائل. مما جعل الباي بن عمر في اليوم الموالي يطلب الرحيل مع الحملات الفرنسية، بدلا البقاء في بالمدينة، خوفا من تعرضه لهجوم القبائل العربية المغيرة على المدينة.³⁹ هذا الباي الذي حاولت فرنسا تنصيبه على المدينة، لكن تم رفضه من طرف الأهالي.

وأثناء عودة حملة مانديري من المدينة إلى العاصمة بتاريخ 2 جويلية 1831، والمقدر عددها بأكثر من 4500 جندي فرنسي، فكرت القيادة الفرنسية عبور المنطقة انطلاقا على الساعة الخامسة صباحا، لكي تصل إلى عاصمة بابليك التيطري قبل أن يعسفس الليل عليها، خوفا من هجمات القبائل والعروش المجاورة للمدينة، حيث وضعت القافلة العسكرية السكان المدنيين الذين تم أسرهم بأمر من القائد مانديري من جهات هوارة كدروع لحامية الجيوش الفرنسية من الخلف ضد الهجمات المحتملة من طرف العرب. وبالفعل فقد غادرت الحملة المدينة من منطقة الزيتون على الساعة 11 نهارا.

لقد تسربت الأخبار للأهالي عن رحيل الحملة من المدينة، حيث اجتمع حشود من الأتراك والعرب الذين اتفقوا مع أهالي موزاية وسماتة، بهدف محاصرة الفرنسيين في مضيق صعب يؤدي إلى الثنية، محفوف بالأودية والأشجار والصخور. وبالفعل فقد جرت معركة بين الطرفين، خلفت سقوط ثلاثة جنود وجرحى آخرين في صفوف الفرنسيين، ولم تستطع القوات الفرنسية من قبضة محاربي قبائل التيطري إلا بصعوبة، والمقدرة بحوالي 1500 محارب واستطاعت الفرقة رقم 20 وفرق الزواف المجندة من الأهالي المتطوعين في الصفوف الحملة العسكرية بقيادة القائد ديفييفي *devivier*.⁴⁰ وفرقة المدفعية التي كان على رأسها القائد كفاف *cavin* الوصول إلى موزاية. وتوقفت الجموع

المهاجمة في سفوح جبال الأطلسي، هذه الحملة التي عادت أدراجها إلى الجزائر في الخامس جويلية، خلفت في صفوفها 55 قتيلا و 198 جريحا من الجنود الفرنسيين.⁴¹

3. الباي محمد بن حسين ومشاكله مع قبائل المدية:

بعد تسلم القائد كلوزيل قيادة الحكم في الجزائر، قام بتنصيب بعض البايات على المقاطعات التي كانت خاضعة لحكمه، منهم الباي محمد علي التيطري عام 1835، الباي إبراهيم على معسكر، الذي اعتزل وطلب تحويله إلى مستغانم. والمزاري باي على معسكر، لكن لم يستطع الوصول لأقامته بمعسكر التي ظل منصب الباي شاغرا فيها خلال هذه الفترة. والموكليك بتلمسان. وهناك قائمة للأسماء التي عينت في هذه المناصب خدمة للسياسة الفرنسية منشورة في جريدة لومنيطور دالجي بتاريخ 15 أكتوبر 1835.⁴²

وما يشار إليه أنه خلال تنصيب الباي الجديد محمد بن حسين حاكما على المدية في الجزائر من طرف المارشال كلوزيل، قامت مجموعة تتألف من 150 شخصا من أعيان وشيوخ القبائل المدية بالقدوم للجزائر لتقديم الطاعة والولاء لصاحب المقام الجديد. وبعد الانتهاء من مراسيم التنصيب تم مرافقة الباي من طرف الجنرال رابتال إلى مضيق الثنية* ينتظره مصير مجهول من طرف القبائل المعارضة، وعلى رأسهم عروش بني يعقوب وحسان بن علي.⁴³ فأتثناء قدوم الباي المنصب محمد بن الحسين لتسلم منصب القيادة في مدينة المدية، والذي كان شيخا كبيرا من أصل تركي⁴⁴ قادما من الجزائر إلى المدية في حالة مرتبكة وباسم مستعار خوفا من اكتشاف أمره، تم اعتراضه من قبائل بني يعقوب (شومبلا)، ونهبت كل ثرواته وممتلكاته التي كان يحملها معه، ولما وصل إلى قبيلة حسان بن علي أُلقي عليه القبض رفقة العناصر المرافقة له، وتم تسجنه قرابة ثلاثة أشهر كاملة.⁴⁵

غير أن الجنرال كلوزيل أنقذ الموقف بتوجيه حملة لتحرير الباي المعزول، وبعد أن تمت عملية تحريره، فقد زوده القائد الفرنسي بأكثر من 600 بندقية سلاح، 50000 خرطوشة، و6000 فرنك فرنسي قديم، واستلم الباي محمد مهامه في المدينة، لكن يبدو أنه كان غير محظوظ وغير فطن، لأن أحد ضباط عبد القادر قام بالاستيلاء على ممتلكات الباي، من أسلحة وأموال وذخيرة، وتم تعبئتها على ظهر حمار لتقديمها للأمير عبد القادر.⁴⁶

يبدو أن الباي محمد كان أقل عنفا ومواجهة مقارنة مع البايات الآخرين، ومنهم يوسف اللقيط (يوسف التونسي) الذي أصبح بابا لقسنطينة بعد سقوط أحمد باي. الذي وضع شرطا أساسيا لحكم بابيك التيطري، عندما ألح على طلب منصب الباي بقوله: "سأقطع رؤوس ستة من أثرياء من سكان المدينة أصادر ممتلكاتهم كي أجعل البلد يعيش في الخوف الحقيقي وأخربها مدة أسبوع كامل".⁴⁷ لماذا كل هذا القصد الذي كان يكنه هذا العميل لسكان المدينة؟ أهو حب للسلطة؟ أم هي سياسة لإرضاء السلطات الفرنسية؟

4. مقاومة ابن بومزراق وأهالي المدينة في معركة عين الكرمة:

لقد تزامنت ثورة ابن بومزراق مع مقاومة ابن زعموم. فالأول بعدما سمحت له السلطات الفرنسية العودة إلى المدينة في شهر فيفري 1831. قاد مجموعة من الثائرين من نواحي المدينة، حيث أنه خلال شهر جويلية تبنى عمليات عسكرية قرب مدينة الجزائر، حيث اعترضوا بتاريخ 18 جويلية 1831 فرقة مدفعية عائدة على طريق العاصمة بالقرب من بئر الخادم وأصيب فيها فرس القائد أميرول Amirault. وفي اليوم الموالي تم مهاجمة نفس المزرعة لكن دون تحقيق نتائج تذكر. كما تعرض نصف الفيلق رقم 76 لهجوم في التاسع عشر جويلية، وتم تحويل طريق نصف الفيلق لولا تدخل المفزة رقم 30. وفي يوم 12 من نفس الشهر تدخل الجنرال فوشار fouchers في معركة حامية الوطيس في واد الكرمة ضد المقاومين العرب، وبذلك أصبحت المنطقة تعاني خطرا حقيقيا لولا تدخل القائد برتيزان على رأس أربعة فيالق عسكرية لإبعاد

المحاربين العرب عن الجهة المذكورة. وظلت القوات الفرنسية تلاحق التأثيرين في معارك بئر التوتة وبوفاريك، حيث انسحب في الأخير المقاومون تاركين ما بين 600-800 قتيل في صفوفهم، في الوقت الذي قدرت الخسارة البشرية في صفوف الفرنسيين ب 28 قتيل و 134 جريح، رغم ذلك فالمقاومة استمرت إلى غاية شهر ديسمبر.⁴⁸

إن مقاومة أهالي المدينة لم تثبط في تراب المدينة فقط بل تحركت المقاومة إلى سهول متيجة لمحاربة الفرنسيين الذين كانوا يتحركون في المنطقة.

5. المدينة مقاطعة إدارية في دولة الأمير عبد القادر:

من المعروف تاريخيا أنه بعد سقوط حكومة الداوي حسين حدث صراع بين أحمد باي قسنطينة والأمير عبد القادر من أجل الظفر ببايلك التيطري. غير أن تداخل الأحداث ، وتوجيه فرنسا أنظارها لاحتلال قسنطينة جعلت أحمد باي يولي اهتمامه أكثر لقسنطينة.

فبعد فشل الحملة الفرنسية الأولى على قسنطينة، وتوقيع الأمير عبد القادر معاهدتي دي مشال والتافنة مع الفرنسيين، فإن الوضع الفرنسي في الجزائر أصبح غير مستقر، حيث أصبحت تراب المدينة ومليانة في حظيرة دولة الأمير عبد القادر، فخلال السنتين اللاحقتين حاول الأمير القيام بترتيبات عسكرية في المدينة، تشمل مخزنا لصناعة البارود والأسلحة، استعداد للحروب القادمة مع الفرنسيين.⁴⁹

وبغية تثبيت الأمير عبد القادر دعائم دولته في هذه المناطق، فإنه قدم إلى المناطق الوسطى منها شرشال التي عين عليها قائدا خاضعا لسلطته الفعلية، وقبائل بني مناصر المحايدة بسبب تهريبها من الضرائب المفروضة، حيث عرج الأمير عبد القادر على مليانة متوجها إلى معسكر، لكن الغريب أنه وصل إلى وادي الفضة وعاد إلى المدينة التي دخلها بتاريخ 22 أفريل،⁵⁰ وقد يكون السبب في ذلك هو رغبة سكان التيطري في الانضمام للأمير، كما يبدو من خلال مراسلة أهالي المدينة للأمير عبد القادر للخضوع لسلطته، رافضين الفوضى

التي كانت تعيشها المنطقة، معرضين عن السياسة الفرنسية التي تعتبر القبائل المساندة للأمير عبد القادر هي عدوة بالضرورة لفرنسا،⁵¹ حيث أعطى أوامر بالقبض على مئات الكراغلة* والذين تم ترحيلهم وسجنهم في مدينة مليانة. كما قام الأمير عبد القادر بتعزيز وربط علاقات التعرف مع قبائل المجاورة للمدية وزار البلدية وغيرها. وبذلك أصبح الأمير عبد القادر يراقب تحركات الفرنسيين من المدية، وأحداث العاصمة بعد انسحاب دامرمون واسترجاع طريق وهران، وعين أخوه الحاج مصطفى حاكما على مقاطعة المدية.⁵² وقد اعتبر البعض أن الأمير عبد القادر جاء لينتصر للغرب للحزب المتعصب بقيادة سيدي العربي، لما سمع بأن موسى الشريف استولى على المدية.⁵³

إن ولاية الخليفة الحاج مصطفى لم تدم طويلا، فسرعان ما عين عليها نائبه محمد بن عيسى البركاني خليفة على مقاطعة المدية، باعتبار أن الأول كان منشغلا بالعبادة بدلا من الأمور الإدارية والعسكرية، لذلك أقدم الأمير على عزله من منصبه، وتعين بدله الخليفة محمد بن عيسى البركاني نظرا لشجاعته وخبرته العسكرية ودوره الجهادي، خاصة وأنه كان على علاقة بالحاج موسى الدرقاوي الذي تزعم المقاومة بمتيجة 1833-1834، والذي طلب منه إثارة عرب الصحراء ضد الفرنسيين.⁵⁴

لقد اغتتم الأمير عبد القادر الفرصة لتنظيم إدارته في الولايات التابعة له، حيث اتجه في ديسمبر إلى بزج حمزة (البويرة) على حدود قسنطينة، بقوات قدرت بحوالي 2500 محارب في منطقة الحمير، كما عرج على المدية، ونصب فيها الباي وقياد المقاطعة في مختلف المناطق.

وتميزت فترة 1837-1839 بالاستفزازات المستمرة من طرف قوات الأمير عبد القادر، وبإقامة البركاني في المدية، الذي كان رهن إشارة الأمير عبد القادر لتنفيذ أوامره، حيث تميز فترته بمهاجمة القوافل العسكرية الفرنسية في متيجة، منها حملته الانتقامية على البلدية انتهت بفشله وخسائر مادية وبشرية. إن المصادر الفرنسية تذكر بأن الأعمال العدائية للبركاني جعلتهم يواجهون

حملة بقيادة فالي *vallée* إلى المدينة في 18 نوفمبر 1839. لقد تموقع الخليفة محمد البركاني مستترا على القمم والروابي المطلّة على سهل متيجة، بعد الاجتماع الذي عقده الأمير عبد القادر في المدينة بإعلان الحرب، في الوقت الذي ارتدت عنه معظم القبائل المجاورة.⁵⁵

وفي أحد الرسائل المؤرخة في 12 ديسمبر 1838 يعترف القائد الفرنسي سان تارنو *Saint-Arnaud* بانتصار الأمير عبد القادر عن الجيوش الفرنسية بعد معركة عين الميدي، حيث قام هذا الأخير بجمع قواته بالمدينة، التي انظم إليها السكان المحليين، حيث يقول سان تارنو بأنه كان يلزمه على الأقل عشرين ألف مقاتل للتفوق على قوات الأمير، والتي لم يجدها على أرض الواقع حسب قوله: "من خلال معرفة بالمس لقد مررت ورأيت القبائل، وأيضا الدواوير والصحاري، الكل فر من أطفال ونساء وماشية ملهم فروا نحو الجبال. والرجال تجمعوا للتحصير (للمقاومة)".⁵⁶

في ظل تفاعل الظروف السابقة حاول الماريشال كلوزيل تأديب قبائل جبال الأطلسي التي كانت تعترض طرق الفرنسيين باستمرار. وبالفعل فقد وجهت القيادة الفرنسية حملة ثانية على مدينة المدينة، انطلقت من بوفاريك تحت قيادة الماريشال ومساعديه دي ميشال *Desmichels* وراپتال *rapatel*، قوامها 7000 جنديا من المشاة، منهم 1200 جندي ينتمون لقوات الهندسة المدفعية، حيث واجهت الحملة مقاومة من طرف القبائل أثناء عبورها مضيق الثنية، رغم ذلك فالحملة الفرنسية فقد نجحت مرة أخرى، واستطاع القائد دي ميشال دخول مدينة المدينة في 4 أبريل 1936.⁵⁷ ونصب الباي الجديد على المنطقة. وقام بتأديب القبائل المجاورة للمدينة. وفي هذه الظروف قامت وحدات الهندسة المدنية بتهيئة 15 كلم من طريق الثنية، الرابط بين المدينة ومتيجة، مدعما بالمدفعية في وجه القبائل العربية الثائرة ضد الفرنسيين.⁵⁸

5. الحملة الفرنسية الرابعة وسقوط المدينة:

علمت الحكومة الفرنسية في شهر أفريل 1840 بأن القسم الأكبر من المحاربين العرب يتمركزون في مضيق ثنية موزاية المؤدية إلى مدينة المدية. وأعطت الأوامر لاحتلال المضيق والمدية معا، حيث تم تجهيز جيش قوي بقيادة أكبر الجنرالات الفرنسيين، وهم الدوق أورليون *Duc Orléans*، لامورسيار *Lamoricière*، أومال *Aumale*، ديفيفي *Duvivier*، على أقوى الفيالق العسكرية، الفرقة 13، 17 التي كان يقودها القائد بيدو *Bedeau*، والفرقة 2 بقيادة شونقاري *Changarnier*، والمدفعية بقيادة الماريشال فالي *Valée* في 14 ماي 59، رغم تحصن القوات الجزائرية في المضيق فإن المقاومة التي كان يقودها الأمير عبد القادر فقد فشلت في صد القوات الفرنسية عن مضيق الثنية. حيث استطاعت بعض القوات الوصول للهضبة متخذة مسارا بمحاذاة المرتفعات، كما استطاعت القوات الفرنسية بعد معارك ضارية اختراق المضيق، والوصول لأعالي المرتفعات الجبلية بقيادة الدوق أورليون، حيث انسحبت قوات الأمير مخلفة وراءها خسائر معتبرة في العتاد والأرواح، حيث تمكنت الجيوش الفرنسية بتاريخ 17 ماي 1840 من دخول مدينة المدية، في الوقت الذي أخلى فيه الأمير المدينة مصحوبا بسكانها المحليين معه 60. وبذلك خلى الجو للفرنسيين، وعملت القيادة الفرنسية على تقوية المدينة لصالحهم، وبتاريخ 20 ماي غادرت الحملة الفرنسية المدينة تاركة وراءها حامية تتكون من ألفين جندي تحت قيادة ديفيفي، الذي أصبح حاكما على مقاطعة المدية باسم الحكومة الفرنسية في الجزائر.

فبعد حملة 1840 سقطت المدية نهائيا في يد الفرنسيين، كغيرها من الجزائر، وهران، عنابة، وقسنطينة. وبدأت مرحلة جديدة في المدية، حيث شرعت السلطات الفرنسية في تنفيذ سياستها الاستعمارية الجديدة، تمهيدا لتوسيع نفوذها جنوبا انطلاقا من القطاع العسكري في المدية.

الخلاصة:

إن موقع بايلك التيطري نظرا لأهمية الجيو إستراتيجية جلب لفت أنظار الاحتلال الفرنسي للمنطقة منذ الوهلة من الاحتلال الفرنسي للجزائر، فكانت إحدى الحلقات الصعبة في عملية الاحتلال الفرنسي للمناطق الداخلية الجزائرية.

إن القوات الفرنسية واجهت أربع حملات لاحتلال بايلك التيطري - المدية- لمدة عقد من الزمن. فالحملة الأولى كانت تحت قيادة الجنرال كلوزيل ما بين 29/17 نوفمبر 1830، والحملة الثانية كانت بقيادة الحاكم العام بارتيزان، أما الحملة الثانية فتمت في عهد الحاكم العام كلوزيل شهر أفريل 1836 بقيادة دي ميشال، وأخيرا الحملة الرابعة التي تم بموجبها احتلال المدية وإخضاعها نهائيا للسلطة الفرنسية في 17 ماي 1840 بقيادة المارشال فالي.

إن رد فعل سكان ولاية المدية تمثل في المقاومة المستمرة للاحتلال لمدة عشر سنوات كاملة، وذلك بالانخراط في المقاومة الرسمية مع الباي بومزراق عشية نزول الفرنسيين على شواطئ سيدي فرج، وعشية الحملة الفرنسية على المدية بقيادة الجنرال كلوزيل عام 1830.

لقد فشلت ترتيبات الحملة الفرنسية في المدية بعد الحملة الفرنسية الأولى، حيث ظهرت مقاومات شعبية من طرف سكان العروش الدواوير والقبائل، مما جعل الحميات الفرنسية وإدارتها تنسحب من المنطقة. لقد خضعت المدية والمناطق التابعة إليها لسلطة الأمير عبد القادر مفضلة الحفاظ على الملة والهوية والقومية، إلى غاية 1840م.

إن تغير موازين القوى بين الأهالي وبين الفرنسيين ساعدت في سقوط المدية في يد الفرنسيين عام 1840، لتبدأ مرحلة جديدة في المنطقة، عرفت خلالها المقاطعة ترتيبات سياسية، عسكرية، اقتصادية واجتماعية قصد تدعيم السلطة الفرنسية في المدية.

الهوامش:

1 -Cortès, Léon. **Monographie de la commune de Médéa** ; imp algérienne ; Alger : 1909 ; p15.

2-IBID ;pp15-18.

3 أبو القاسم سعد الله ، محاضرات في تاريخ الجزائر بداية الاحتلال، ص

4- Plée, Léon . Abd-el-Kader : **nos soldats, nos généraux et la guerre d'Afrique** , p10.

5-IBID, p10.

6-A. Dieuzaide, **Histoire de l'Algérie de 1830-1878**.
Tome 1, p165.

7-Plée, Léon , op.cit, p10.

8- Dieuzaide ;op.cit,p169.

* هو برترون كلوزيل كونت Bertrand Clauzel وماريشال فرنسا، ولد عام 1772، في ميريبوا meripoix (أرياج) ariage ، توفي عام 1842، تطوع في الجندية، قام بالخدمة عام 1794، ثم في جيش البريني 1795، قاد فرقة عسكرية في إيطاليا، 1799، رافق الجنرال لكلاك في جزر سان دومنيك، عين جنرال قسم، ضرب مثلا في الحرب الاسبانية تحت جينو ومسينا، وفي عام 1812 في منطقة البرتغال، عينه لويس الثامن عشر مفتشا عاما للجيش البري خلال الإصلاح الأول، تم نفيه بسبب تعاونه مع نابليون بونابرت، بعد عودة من منفاه من جبال الألب 1815. عاد إلى فرنسا بعد العفو عليه 1820، وانتخب عضوا في البرلمان عام 1827، ممثلا لمقاطعة الروتل، عين حاكما عاما للجزائر بعد الاحتلال 1830، وفي عهده تم احتلال المدينة والبلدية. وتم استدعاؤه عام 1831 إلى فرنسا على خلفية مع الباي التونسي التي تنص على تنازله عن وهران وقسنطينة . وبعدها عين ماريشال، ثم حاكما عاما على الجزائر مرة ثانية في 1835، وفشل في احتلال قسنطينة، بعدها انتقل إلى فرنسا متقاعدا حتى وفاته 1842.أنظر:

maréchal Bugeaud, d'après sa correspondance intime et des documents inédits, p11.

9-Plée, Léon ,*op.cit, p10.*

10- Paul Thureau-Dangin . **Histoire de la monarchie de Juillet.** Tome 3 ,p461.

11-M .ANDRIANT PASCAL. **Histoire de l'armée et de tous les régiments.** Tome 4, deyrte librairie .1864 ;p.lviii.

12-Paul Thureau-*op.cit, p.461.*

13-M .ANDRIANT PASCAL, *op.cit, pVII.*

14-Baudens ,**Relation de l'expédition de Médée**, publiée par Vict , p.201.

15-Ministère de la guerre , **collection des actes du gouvernement j'jusqu'a octobre 1934** ,imprimerie royale , paris ,p 40.

16-IBID ,p 81 ,82.

17-Ministere de la guerre ,*opcit ,p 41.*

18- IBID ,p 42.

19- IBID ,p 142 ,143.

20- Desjobert. A, **La question d'Alger : politique, colonisation, commerce** , dufart librairie ,paris , 1837 ,p102.

21-Dieuzaide .A, **Histoire de l'Algérie de 1830-1878.** Tome 1 , p.229

**** يذكر بودان بأن السلطة الفرنسية في عهد كلوزيل وقعت معاهدة مع باي تونس بمبلغ 2 مليون فرنك فرنسي قديم، تنازلت بموجبها فرنسا لتونس على**

وهران وقسنطينة تحت حكم الباي حتى تتفرغ لاحتلال العاصمة المدية وعنابة
التي لم تحقق .

Baudens , op.cit , p.201.

22-IBID , p.200.

23-Dieuzaide , op.cit ,p170.

24- Plée, Léon ,op.cit , p10.

*25- Histoire de l'armée et de tous les régiments... Tome
4: p111.*

26-Paul Thureau-Dangin , opcit. Tome 3 , p.461.

27-IBID,pp.462 -464.

28-Dieuzaide , op.cit , p229.

*29-Paul Thureau-Dangin , **Histoire de la monarchie de
Juillet.** Tome 3 , p.461.*

30- Dieuzaide , op.cit ,p170.

31-Plée, Léon ,op.cit , p10.

32- IBID , p173.

33-IBID ,p173 ,174.

34- Paul Thureau-Dangin , op.cit, p.461.

35- Dieuzaide , op.cit , p174 ,175.

36-IBID , p175.

37- IBID, p226 ,227.

38-IBID , p.229

39-ibid ;pp229-231.

40-IBID, p293.

41-IBID, pp230 -232

42-IBID , p230 ,231.

43-Desjobert, **La question d'Alger : politique, colonisation, commerce**, p290 ,291.

يذكر البعض بأن الجنرال رابتال كان على رأس 2000 مقاتل، أوصله إلى موزاية، ضنا من الباي بأنه سيلاقي بعض المتعاونين معه، لكنه للأسف التقى بخصومه، مما جعله يخوض بعض المعارك ضدهم، ليعود مرة أخرى إلى حامية بوفاريك، لكن رغم ذلك فقد حاول الباي الوصول لمقر حكمه، لكنه تقاجئ بقبائل حسان بن علي التي ألقت عليه القبض. كما أن قبائل حبوط نهبت قافلته، ورغم ذلك فإن القوات الفرنسية لم تتدخل ضد قبائل حبوط للثأر لباي التيطري. أنظر:

Léon, *Monographie de la commune de Médéa ; imp. algérienne ; Alger : 1909* ,p23.

44- Desjobert, *op.cit*, p.292.

45-Léon, *op.cit* , p23.

46- Desjobert , *op.cit*, p293.

47-BID, p293.

48-IBID , pp230 -233.

49-IBID , p236,237.

50-Léon , *op.cit*,p26.

51-Victor. A. **Histoire de l'Algérie de 1830-1878**. Tome 2 ,P 234. OU , Dieuzaide , *op.cit* , p224.

52- Desjobert, *op.cit*, p318.

* يذكر الجنرال بيجو بأن عدد الكراغلة الموقوفين هو 85 كرجلي. أنظر:

Le maréchal Bugeaud, op.cit, 1 , p60.

53- Dieuzaide , *op.cit*. Tome 2 ,p224.

54- Desjobert, op.cit ; p319.

1مديرية الثقافة لولاية المدية، لالة فاطمة نسومر بين المقاومة والتصوف، ملتقى لالة فاطمة نسومر 12/10 ماي 2009، منشورات دار الثقافة بالمدية، ص ص 46-48.

55-Léon , monographie ...op.cit , p26.

56-Sainte bève , **Lettres du maréchal de Saint-Arnaud**, 1832-1854. Tome 1, Edition 3 , Michel Lévy imprimerie , 1864 , p183.

57- M .ANDRIANT PASCAL, **Histoire de l'armée et de tous les régiments...**, Tome 4 deyrte librairie ; 1864,p.111

58-IBID ,p111.

59- Léon , monographie... ,op.cit , p27.

60-IBID , p28.

*الأقاليم أو المناطق المدنية تسير على أساس الحقوق المشتركة، الانتخابات الخاصة، الدستور، والإدارة المدنية، للأوربيين الحق في مؤسساتهم الطبيعية، وحق اكتساب وبيع الممتلكات العينية الثابتة، بحكم قانون 15 أفريل 1845. أما الأقاليم العسكرية فالسلطات العسكرية هي التي تدير الشؤون المدنية والإدارية والقضائية أما اكتساب وبيع الممتلكات العينية لا يكون إلا بإشراف وزارة الحربية. المناطق العربية تدار عسكريا لا يمكن الاستقرار فيها إلا بإذن عسكري شخصي. بعد إنشاء القسم الإقليمي. أنظر:

Bequet ;L'Algérie_en_1848_tableau géographique , librairie hachette ; paris: 1849 p67,68.